

مدینة مرزق، وتجارة القوافل

صلاح علي الحطاب

مقدّمة

لعبت ليبيا دورا كبيرا في النشاط الاقتصادي والتجاري منذ أقدم العصور بحكم موقعها الجغرافي المميّز وكونها بوابة أفريقيا على جنوب البحر المتوسط. يتناول هذا البحث تجارة القوافل في ليبيا، ونظراً لتعدّد المراكز التجارية لهذه القوافل بالأراضي الليبية فقد ارتأينا أن نأخذ مدينة "مرزق" كنموذج لهذا الموضوع حيث تعتبر مدينة مرزق من أهم مراكز تجارة القوافل في منطقة فزان، والتي تعتبر عاصمة لها. وقد استقرت بها أسرة أولاد محمد في الفترة الممتدة ما بين عام 957 هـ / 1550 م حتى منتصف القرن الثامن عشر وكانت تمرّ بها القوافل القادمة من الشمال إلى بورنو وأفريقيا الوسطى إضافة إلى القوافل المتّجهة إلى كانو عبر غات وبالعكس.

وفي هذا البحث سأتناول الموضوع من خلال المحاور التالية :

- الخلفية التاريخية لمنطقة فزان.

- نشأة وتطور مدينة مرزق.

- مدينة مرزق وتجارة العبور الصحراوية.

أولاً - الخلفية التاريخية لمنطقة فزان الجرامنت ومدينة جرمة

تقع مدينة جرمة في وادي الحياة في جنوب غرب سبها على مسافة 170 كلم تقريباً، وأول إشارة عنها كانت في القرن الخامس قبل الميلاد حيث ذكر بأن أهلها الجرامنت كانوا يمارسون الزراعة والرعي وكان لديهم نوع من الثيران الطويلة القرون السميكة الجلد¹.

اختلف الباحثون حول أصل الجرامنت وعن الجهة التي قدموا منها، منهم من قال أنهم قدموا من سواحل برقة، أو من سواحل طرابلس أو من سيوة، أو أنهم من قبائل البحر المتوسط من الكريتيين والصقليين وأهل سردينيا، وربما يعود أصلهم إلى جرمانة وهي قبيلة من بني ماضط، وهي بطن من بطون لوائثة².

أسس الجرامنت عاصمتهم جرمة في القرن الثالث قبل الميلاد بعد مدينة جرمة التي أقاموها قبلها وبالقرب منها على سفح جبل "زنكرة" وبنوا فيها المساكن التي تتكون من طابق أو أكثر، وشيّدوا الأسواق والحمّامات والمسارح. وظلت جرمة عاصمة فزان الأولى إلى أن فتحها عقبة بن نافع الفهري سنة 49 هـ/ 669 م³.

ومن معالم حضارة الجرامنت أنهم بنوا قبورهم على شكل هرمي أو دائري أو مربع يتراوح عمقها ما بين 4 و5 أمتار، وكانوا يسجّون موتاهم على هيئة الجنين ويضعون معهم بعض أدوات الزينة مثل قشور بيض النعام. وقد عرفوا كذلك طريقة الوقاية من سموم العقارب والأفاعي واستعملوا الصباغة في الملابس وبرعوا في صناعة الحلّي من الذهب والفضة⁴.

وقد سيطر الجرامنتيون على طرق التجارة القادمة من ساحل البحر المتوسط عبر الصحراء إلى أفريقيا الوسطى، وسيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد عن 1000 سنة. وكان الفينيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم حيث كانت الصلات بينهم ودية وتجارية ولا يوجد ما يهدّد حدود الجرامنت، وكانت أحوالهم مستقرة⁵. وفي خلال النصف الثاني من القرن الأوّل قبل الميلاد، وعندما استولى الرومان على نوميديا

1 - محمد سليمان أيوب، جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص 46.

2 - طاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 76.

3 - أيوب، ص 69.

4 - أبو بكر عثمان القاضي الخضير، فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور، ص 34.

5 - جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ص 18.

وضمّوا طرابلس لروما، انتقلت المظاهر الحضارية النوميدية إلى جزمة التي أصبحت زعيمة القبائل الليبية في تلك الفترة.

وفي سنة 20 قبل الميلاد أصدر أغسطس أمراً لقوّاده بالتوغّل خارج حدود الإمبراطورية في كل مكان، ومن بين هؤلاء القادة قائد إسباني يدعى كورنيليوس بالبوس كلف بالاستيلاء على مملكة جزمة. وقد انطلقت الحملة من صبراتة إلى غدامس ومنها إلى إدري ثم صحراء أوباري حتى وصلت إلى جزمة⁶. ولكن الرومان لم يستقروا في فزان حيث قام الجرامنت بمحاربتهم وإخراجهم من البلاد. واستمرت الحروب بينهم وكانت أساليب الجرامنت في الحرب قد أتعبت الرومان كثيراً حيث كانوا يقومون بدم الآبار ويقطعون خطوط تموينهم حتى اضطر الرومان للتراجع. وظلت الحروب ما بينهم دون أن يصل أحدهم إلى أي نتيجة، فلم يتمكن الجرامنت من الاستيلاء على مدن الساحل كما لم يتمكن الرومان من إحراز أي نصر بالداخل.

وفي أواخر القرن الأول الميلادي ساد السلام في جزمة وأمنت الطرق وازدهرت التجارة وكان ذلك في فترة حكم الإمبراطور سبتيموس سيفيروس وهو من مواليد مدينة لبدة بليبيا.

ونشطت تجارتهم حيث كانوا يوردون إلى أسواق مدينة لبدة الحيوانات المتوحشة اللازمة لألعاب المصارعين وناب الفيل والفيروز الأخضر وغيرها من البضائع الأفريقية، ويبيعون للأفارقة الزجاج والفخار الروماني والمنسوجات والأسلحة وغيرها من صناعات البحر المتوسط.

وقد برع التجار الجرامنت في التجارة الصحراوية كما برع الفينيقيون واليونان في البحر حيث كانوا يسيرون بقوافلهم من دون أن يضلّوا طريقهم مما يدل على معرفتهم بمسالك الصحراء وفراسطهم في معرفة أماكن المياه بالصحراء. وقد احتفظوا بأسرار الطرق الصحراوية ولم يتحدثوا عنها لأحد خوفاً من أن تتسرب هذه المعلومات إلى غيرهم فينافسهم فيها كما يشير إلى ذلك الكتاب الكلاسيك في أكثر من موضع⁷.

وكانت وسيلة الجرامنت في التجارة هي المبادلة والمقايضة، ولم يسكّوا عملة خاصة بهم

6 - أيوب ص 51.

7 - المرجع السابق - ص 52-67.

حيث كانوا يبادلون بعض المعادن مثل الذهب والفضة والفيروز. وقد وجدت عملة رومانية في جربة القديمة ولكن يبدو أنها كانت تستعمل فقط للمبادلة في أسواق لبدة وصبراتة وغيرها من أسواق المدن الرومانية⁸.

أما أهم المحاصيل المحلية التي كانوا يتاجرون بها فهي الخيول التي يقول بليني أن الإنتاج السنوي منها كان يبلغ المائة ألف مهر، وكذلك الأبقار والثيران. أما أهم هذه الغلال الذي كان مورد الثروة للبلاد فهو الفيروز الأخضر حيث كانت قيمته تعادل قيمة الماس في وقتنا الحاضر⁹. وقد اكتشفت محاجره على تلال "إيغي زوما" في المنطقة الواقعة شرقي الواو الكبير وواو الناموس، إلى جانب الملح الذي كان يباع في النيجر بمثل حملته ذهباً.

وكانوا يستوردون من أفريقيا العاج وبيض النعام والبخور والذهب والفضة ويصنعون هذه المواد في جربة أو يصدرونها لأسواق لبدة واويا وصبراتة لبيعها¹⁰. وكانت القوافل الجرامنتية تستورد من أسواق البحر المتوسط الزيوت والخمور حيث كانت تبعاً عادة في الأمفورات الكبيرة التي كانت تحمل على عربات وتثبت بها بواسطة فتحات. كما كانوا يستوردون المنسوجات الحريرية والصوفية وأنواع مختلفة من الفخار للاستعمال والتجارة. وقد عثر على أمفورات مصنوعة في مدينتي لبدة وصبراتة كما كانوا يستوردون الأواني الزجاجية المصنوعة في الإسكندرية والقوارير من إنتاج المصانع التونسية، وعثر على المئات من أواني التيراسجلات¹¹.

وكان الحصان هو وسيلة النقل لدى الجرامنت حيث ذكر سترابو بأن الخيل كانت عماد تجارتهم وأنهم كانوا يجرّون عرباتهم بواحد أو أكثر من هذه الخيول.

أما القوافل التي تسير بين سواحل البحر المتوسط وجربة فكانت تسلك أحد السبل الأربع التالية :

1. من صبراتة إلى غدامس، وهي تعتبر من أسهل الطرق إلا أن مسافتها طويلة تربو عن الشهر تقريباً. وهذه الطريق لا تعترضها الجبال الوعرة حيث تسير القوافل عبر رمال أوباري.

8 - محمد سليمان أيوب، جربة من تاريخ الحضارة، ص 213 .

9 - المرجع السابق ، ص 213.

10 - المرجع السابق ، ص 217 .

11 - المرجع السابق ، ص 212.

2. من طرابلس إلى غريان، وتعتبر هذه الطريق من أقصر الطرق، ولكن يصعب اختراق سلاسل الجبال منها إلى هضبة الحمادة الحمراء حتى تصل إلى مدينة برقن بوادي الشاطئ ثم تعبر صحراء أوباري وتمرّ بالبحيرات ومنها إلى وادي الآجال فجرمة.

3. من مدينة لبدّة إلى قرزة ومنها إلى الشويرف ثم براك ومنها إلى سبها حتى تصل إلى جرمة عن طريق وادي الآجال.

4. من سرت إلى ودان وهون وسوكنة وعبر جبال السودان إلى سبها ومنها إلى جرمة.

أما القوافل التي كانت تخرج من جرمة إلى الجنوب فكانت تسلك إحدى الطرق التالية:

1. من جرمة إلى غدوة ثم تراغن ثم زويلة ثم الواوات (الواو الكبير وواو الناموس) ثم المنطقة التي توجد بها محاجر الفيروز الأخضر وهي إيغي زوما ثم تازربو ثم الكفرة والعوينات ومنها عبر الصحراء الليبية إلى جبل ميدوب ثم إلى مروي بالسودان.

2. من جرمة إلى تساوا ثم إلى قصر مارا ثم شربة فالقطنون ثم إلى فايا ومنها إلى كانم.

3. من جرمة إلى تساوا ثم إلى قصر مارا فشربة ونمها عبر الأودية التي تخترق صحراء مرزق إلى خاور عاصمة كوار (النيجر).

4. من جرمة إلى متخندوش ويخترق هضبة الإمساك إلى كوار.

5. من جرمة إلى سردلس ثم إلى ورقلا ثم تمرّاست حتى تصل إلى ضفاف النيجر.

أما عن أسباب انهيار تجارة الجرامنت فتتلخص فيما يلي :

1. التغيرات التي حدثت في المناخ، حيث ازدادت مساحة الصحراء وتحركت الرمال من مكانها ممّا تسبّب في تغطية الكثير من الأراضي الحجرية والمناطق الصخرية وهي الجهات الصالحة لسير العربات. وهكذا سدّت السبل أمام العربات والخيول وطمرت الرمال الآبار وقلّت نسبة المياه الجوفية، حتى أنّ الخيول والحمر لم تعد تتحمل السير في تلك الأماكن القاحلة.

2. تدهور الاقتصاد بالساحل وذلك نتيجة للصراع الذي حدث ما بين الوثنيين والمسيحيين وما بين الفرق المسيحية المختلفة ثم تدمير الوندال لكثير من معالم الحضارة الرومانية.

3-عندما انهارت الإمبراطورية الغربية (روما) وانفصل شمال أفريقيا عنها وانضمَّ إلى الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) استبدلت الموانئ القديمة مثل لبدّة وصبراتة بموانئ جديدة مثل سرت وتغيّرت بذلك طريق جزمة إلى طرق صحراوية جديدة.

4. ظهور منافس لهم وهم قبائل من البربر الذين سكنوا في الساحل مثل قبائل هواره ومزاته. وقد تعلّمت هذه القبائل تربية الجمال وأكثروا منها فساعدتهم في عبور الرمال التي يصعب على الخيول والعربات التي كان يستعملها الجرامنت. ونجحت هذه القبائل في الاستيلاء على واحات الجفرة وزويلة من الجرامنت ووصلت هذه القبائل عن طريق زويلة إلى كوار دون المرور على جزمة¹².

بنو الخطّاب ومدينة زويلة

يرجع أصل هذه الأسرة إلى الهواريين، وتصف بعض الروايات مجيئهم الى زويلة بأنهم كانوا في البداية يمارسون التجارة فيها حيث كانوا من التجار الأثرياء الذين يمتلكون قوافل كبيرة من الجمال¹³.

وأوّل من أسّسها كان عبد الله بن الخطّاب الهواري وابن عمّه سنة 396 هـ/918 م، ثم أنشأت هذه الأسرة فيها ما يشبه المملكة. وكان حكمها في البداية بسيطاً يتكوّن من الحاكم ويعاونه مجلس من الفقهاء ورجال الدين. وكان الحكم فيها بمقتضى الشريعة الإسلامية طبقاً للمذهب الإباضي¹⁴. ثم أخذت في التقدّم إلى أن وصلت إلى ضرب الدنانير الذهبية الزويلية التي عثر على عدد منها في زويلة¹⁵.

تقع مدينة زويلة في الجنوب الشرقي من مدينة سبها وتبعد عنها حوالي 170 كلم تقريباً. ويقول عنها البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب بأنها أصبحت مدينة كبيرة بها مسجد وأسواق وحمامات ومنازل، ولها نظام حراسة محكم بالرغم من أنه لم يكن لها سور حيث كان رجالها يتناوبون الحراسة. ويوجد في زويلة الكثير من قبور الصحابة حيث استشهدوا فيها أثناء الفتح الإسلامي. ومن بين هذه القبور قبر دعبل بن علي الخزاعي،

12 - مختصر تاريخ هزان، ص 72 - 75.

13 - المرجع السابق، ص 90.

14 - الخضيرى، ص 40.

15 - أيوب، ص 90.

وكانت مدينة زويلة في عهد أسرة بني الخطّاب من أهمّ المدن القديمة في فزان ومن أهمّ المراكز التجارية وذلك لوقوعها بين ملتقى طرق القوافل¹⁶.

وساعد في ازدهار مدينة زويلة بالإضافة إلى تجارة الحاصلات الإفريقية والرقيق قوافل الحجّاج، إذ تحوّل الطريق القديمة التي كانت تربط معابد أمون في مصر وسيوة ساحل المحيط الأطلسي إلى طريق تربط المسلمين في شمال أفريقيا بالمدن المقدّسة في مكة والمدينة¹⁷.

وفي سرت عام 568 هـ/1172 م سقطت مملكة بني الخطّاب ومعها مدينة زويلة على يد المغامر قراقوش الأرميني حيث أسر آخر ملوكها وهو محمد بن الخطّاب وعذّبه حتى مات سنة 568 هـ/1172 م.

وبسقوط هذه المملكة أصبحت فزان دون حكومة إلى أن ظهر حكم الزغاويين أو الكانوري في فزان في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وبعد هذا التاريخ برزت تراغن لتحل محل زويلة.

الزغاويون أو الكانوري ومدينة تراغن

اختلف الباحثون في تحديد أصل الزغاويين أو الكانوري كما اختلفوا حول أسباب وجودهم في أفريقيا.

وكل ما يعرف عنهم أنهم أقاموا دولتهم في السودان النيلي، والسودان التشادي التي أقام فيها السلطان دنما مملكة كانم في القرن الثاني عشر الميلادي تحديداً في المنطقة الواقعة غرب بحيرة تشاد¹⁸. وامتد نفوذهم بعد ذلك حتى منطقة فزان في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وقد كان لهم دور كبير في انتشار الإسلام في أفريقيا¹⁹.

وفي عام 609 هجري / 1212 م وبعد سقوط مدينة زويلة أصبحت قوافلهم غير آمنة حيث كانت تتعرض للتهديد. لذلك بسطوا حكمهم على كامل منطقة فزان وذلك لتأمين طرق

16 - المرجع السابق، ص 40.

17 - المرجع السابق، ص 90.

18 - الخضيرى، ص 41، 42.

19 - حسين مؤنس، فزان ودورها في انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 100.

قوافلهم التي كانت تصل بلادهم بالبحر المتوسط، وعين ملكهم نائباً له على فزان والذي بدوره اتخذ بلدة تراغن عاصمة لمقر حكمه.

وتقع مدينة تراغن جنوب سبها وتبعد عنها حوالي 140 كم تقريباً، كما تبعد عن مرزق من جهة الشرق نحو ستين كم تقريباً. وتعرف مدينة تراغن بأراضيها الخصبة وبوفرة مياهها الجوفية وعذوبتها، حيث كانت وإلى عهد قريب تظهر على سطح الأرض على شكل عيون وكان يوجد بها أيضاً بحيرات ومستنقعات يستخرج منها ملح الطعام، وتحيط بهذه المدينة غابات كثيفة من النخيل.

ومن آثار هذه المدينة، والتي لا تزال موجودة، قصر الحاكم ومساكن جنودهم غربي تراغن، كذلك قبر أحد الحكام المعروف باسم "بالمي علي". وقد شيّدوا كذلك عدداً كبيراً من القلاع والحصون في عدة أماكن على امتداد طرق قوافلهم.

وانتهى حكم الزغاويين في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عندما ظهر الخرمان في وادي الحياة ونزعوا السلطة منهم واتخذوا جرمة عاصمة لهم، وبسطوا نفوذهم على معظم فزان، كما ضمّوا غدامس لملكهم. وعندما حاولوا أن يستولوا على منطقة غات تصدى لهم المواطنون وقبائل التوارق الذين كانوا يقطنون في الهضاب المحيطة بغات.

وفي بداية القرن التاسع الهجري / 1500 م، غزا التوارق غدامس واستولوا عليها، وجرت بينهم وبين الخرمان عدة معارك، ونتيجة لهذه الاشتباكات المتكررة ما بين التوارق والخرمان أصبحت فزان في حالة من عدم الاستقرار السياسي الأمر الذي مهد السبيل لظهور أسرة أولاد محمد الفاسي واستيلائها على المنطقة واتخذت مرزق عاصمة لحكمها²⁰.

ثانياً: نشأة مدينة مرزق وتطوّرها

1- موقع مدينة مرزق ونشأتها

تقع مدينة مرزق في الجنوب الغربي من سبها وتبعد عنها بنحو 180 كم تقريباً. تمتاز هذه المدينة بوفرة مياهها الجوفية وتكثر فيها بساتين النخيل التي تحيط بها من كل جانب. وتقع هذه المدينة في المنطقة الوسطى لحوض مرزق الذي يشتمل على سلسلة من الأودية

20 - الخضير، ص 44، وص 46

التي تتصل ببعضها البعض. وتحيط بمدينة مرزق كثبان رملية وهضاب جبلية مرتفعة وأودية ذات منحدرات وسهول زراعية خصبة²¹.

وتعتبر مرزق من أهم مدن فزان لازدهار التجارة فيها حيث كانت طرق قوافل الحجاج القادمة من المغرب عن طريق وادي برجوج ووادي الحفرة تمرّ عليها. وكانت تأتيها القوافل من طرابلس وساحل البحر المتوسط المتجهة إلى برونو وكذلك القوافل المتجهة إلى غات ومنها إلى السودان الأوسط.

وفي خلال الفترة ما بين عام 1550 وعام 1812 م اتخذتها أسرة أولاد محمد الفاسي عاصمة لحكمها، ويرجع أصل هذه الأسرة إلى فاس بالمغرب أو إلى الساقية الحمراء²².

أما الطريقة التي تولّى بها محمد الفاسي عرش فزان فهي أن القوافل كانت تمرّ بالطريق التي قامت فيه مدينة مرزق وكانت تقف للتزود بالماء والطعام ودفع رسوم المرور للقلاع القائمة التي لا تزال أطلالها الكثيرة قائمة حتى يومنا هذا وهي عبارة عن أسوار وأبراج كبيرة مبنية من اللبن. والمعروف أن هذه القلاع كانت ملكاً للأمراء الخرماني الذين كانوا في خلاف دائم مع بعضهم البعض. وقد استخدم محمد الفاسي حراس قافلته وأمواله لمساعدة أحد أمراء الخرماني على أمير آخر حتى قضى عليهم جميعاً في النهاية وأقام لنفسه قلعة في جهة مرزق ربما كانت هي القلعة الأثرية المعروفة بقلعة أولاد محمد. ثم أخذ سلطانه يمتد حتى تغلب في النهاية على جرمة وضم فزان كلها تحت حكمه ونصب نفسه سلطاناً على فزان حوالي سنة 1550 م²³. وقد وسّع حدود حكمه نحو الجنوب حتى شمل قسماً كبيراً من تشاد والنيجر، وضمّ إلى نفوذه كلاً من غات وغدامس. وعند وفاته سنة 1567/ 975 م تولّى ابنه الناصر الحكم من بعده. وفي عهده ازدهرت فزان وانتشر فيها الأمن وبدأت مرزق تنمو وتتوسّع وصارت مركزاً تجارياً مهماً.

واهتم الناصر بالزراعة حيث كانت فزان في عهده تصدّر القمح والذرة والشعير إلى طرابلس والسودان. وصارت مرزق مركزاً كبيراً للقوافل حيث كان بأسواقها سلع مختلفة مستوردة من عدة جهات فكانت الأسلحة النارية والسيوف تأتيها من إسبانيا، كما يأتيها من البندقية وجنوة المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية، وكذلك الزجاج والعطور والفخار

21 - محمد عبد الرزاق مناع، الأنساب العربية في ليبيا، ص 530.

22 - الخضيرى، ص 46 - 47.

23 - مختصر تاريخ فزان، ص 105.

المستورد من مختلف بلدان الشرق والغرب وغير ذلك من السلع الأفريقية. وازدهرت كذلك تجارة الرقيق حيث أسرفي هذه الفترة الآلاف من الرقيق من أفريقيا وبيعوا في موانئ شمال أفريقيا وشحن الكثير منهم إلى أوروبا وأميركا.

وتولى المنصب من بعده ابنه المنتصر بن الناصر محمد الفاسي، إلا أنه كان ضعيفاً حيث دبّ الخلاف بين أفراد الأسرة على الحكم مما أدى في نهاية الأمر إلى تدخل العثمانيين، كان ذلك في سنة 985 هجري / 1577 م. حيث سيطروا على كامل فزان وعينوا حاكماً تركياً يدعى "مامي"، وهرب بعض أفراد أسرة أولاد محمد إلى السودان.²⁴

2. وصف مدينة مرزق

بنيت مدينة مرزق على الطراز المغربي حيث كانت شوارعها ضيقة وبعضها مسقوف. وكانت بالمدينة ثلاثة أحياء رئيسية هي حيّ الرأس الذي يمتدّ إلى جنوب قلعة مرزق. وكان يقيم في هذا الحيّ التجار الأغنياء، وكانت منازل هذا الحيّ في الغالب تتكون من طابقين وهي مبنية باللبن ومطلية بالجير. ولم يتبقّ من هذا الحيّ سوى بعض الأطلال. أما الحيّ الثاني فكان يسمى حيّ النازلة وهو بجوار القلعة من ناحية الشرق. وكان يوجد بهذا الحيّ نزل وفنادق للغرباء وبه مساحة كبيرة للقوافل. أما الحيّ الثالث الذي يسمى بحيّ الزوية والذي ظهر في وقت متأخر فيقع بالقرب من الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى الباب الشرقي حيث يوجد سوق للعبيد.²⁵

سور المدينة

كان جون ليون أول من أشار إلى سور المدينة حيث قام برحلة من طرابلس إلى فزان ما بين عام 1818 وعام 1822م. وقد ذكر أن المدينة كان يحيط بها سور مبني من الطين وله دعائم بها فتحات لإطلاق النار، وتتصف الجدران بأنها مخروطية الشكل. يبلغ ارتفاع السور حوالي 50 قدماً وتبلغ سمك قاعدته 8 أقدام، وكان بالسور سبعة أبواب وكل باب به حراسة مستمرة لمنع العبيد والتجار من محاولة التهريب أو الهروب من وإلى المدينة.²⁶

24 - المرجع السابق، ص 106.

25 - المرجع السابق، ص 106.

26 - جون فرانسيس ليون، من طرابلس إلى فزان 1818 - 1822 م، ص 75.

وفى سنة 1850م وصف الرحالة إدوارد فوجل ذلك السور فذكر أنه يأخذ شكلاً مربعاً، وكانت بالسور أبراج مربعة أو مدورة تدعّمه. وذكر بأنه كان به ثلاثة أبواب، واحد من الجهة الغربية والآخر من الجهة الشرقية وهما ضيقان لا يمرران جملاً، أما الثالث فهو الباب الشرقي الذي كانت القوافل التجارية تمرّ عبره.²⁷

وفى سنة 1865م وصف الرحالة الألماني غيرهارد رولفس سور مدينة مرزق فذكر بأن بعضه بني من الطين المجفّف تحت أشعة الشمس وأن ارتفاعه يتراوح ما بين 20 و30 قدماً وأن سمك قاعدته يبلغ 10 أقدام ومن الأعلى يبلغ عرضه قدمان، وتتخلله أبراج مربعة طول ضلعها حوالي 30 قدماً.²⁸

شوارع المدينة

أشار ليون إلى الشارع الرئيسي للمدينة وذكر بأنه كان يتجه نحو سور القلعة. أما بارت فذكر بأن الشارع الرئيسي يمتدّ من الباب الشرقي حتى القلعة، وحدّد اسمه بلفظة (الدندل).²⁹

أما رولفس فذكر بأن شارع الدندل يمتدّ من الغرب إلى الشرق بخط مستقيم يعبر المدينة وفى بدايته يقوم مركز للجمارك وهناك عند الباب حارسان لحراسته وعلى يمين الشارع يوجد المخفر الرئيسي وإلى جانبه منزل القانمقام وأمامه مقر القنصلية الإنجليزية. وتحفّ بالشارع حوانيت صغيرة بنيت من الخشب أو الطين وهي تمثل السوق. ويمتد الشارع إلى أن يصل ميداناً مكشوفاً تقع في ركنه الشمالي الغربي القصبة والقشلة.³⁰

وتحدث ناختيجال بأن لمرزق شارع رئيسي واحد يبدأ من الباب الشرقي للمدينة ويقسم المدينة إلى قسمين متساويين تقريباً، وكانت به ممرّات وتفرّعات ضيقة.

ووصف لير شيفيلد الممرّات المتفرّعة من الشارع الرئيسي وشبّها بأزقة مدن بلاد السودان مثل مدينة كوكا عاصمة برنو³¹. وطرأت على هذا الشارع الرئيسي تعديلات في وقت

27 - رجب نصير الأبيض، مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر، ص 59-60.

28 - عماد الدين غانم، رحلة عبر أفريقيا، ص 278.

29 - الأبيض، ص 63.

30 - غانم، ص 279.

31 - الأبيض، ص 63.

لاحق لتواكب المستجدات التي حدثت في المدينة من حيث زيادة مبانيها ومرافقها وغيرها مما تطلب زيادة في عرض الشارع وطوله³².

المنازل

ذكر ليون بأن أغلب منازل مدينة مرزق كانت مبنية من الطين ومن طابق واحد وسقوفها منخفضة وأبوابها جيدة الصنع وأقفالها كبيرة وهذه المساكن متلاصقة مع بعضها وتتخللها ممرات ضيقة وتوجد في بعض هذه المنازل مساحات صغيرة تستعمل في الزراعة³³.

ووجد فوجل أن بعض سكان مدينة مرزق كانوا يسكنون في أكواخ بداخل المدينة وأن الأكواخ الكبيرة كانت تتكون من أكثر من حجرة ويوجد بها فناء، أما الأكواخ الصغيرة فتتكون من حجرة واحدة ضيقة ومظلمة³⁴. وقد تطورت طريقة بناء المساكن حيث أصبح بعضها يتكون من طابقين، الطابق الأرضي كان مخصصاً للرقيق ومخزناً للبضائع، والطابق العلوي والذي يصعد إليه بسلم يبدو أنه مخصص لسكن أفراد الأسرة³⁵.

القلعة

كانت تسمى بالقصبة وهي بناء ضخمة شيد فوق كوم عالٍ من الأرض ويحيط به سور مرتفع يوجد عليه أبراج به فتحات لإطلاق السهام والأسلحة النارية. وقد بنيت في عهد السلطان محمد الفاسي، وأقيمت عليها إضافات في عهد ابنه السلطان الناصر حتى أصبحت تضم مساكن حريم السلطان وأبنائه وكذلك مكاتب الحكومة³⁶.

وذكر فوجل بأنها كانت تقع على جانب الباب الغربي للمدينة وكانت جدرانها سميكة وحجراتها ضيقة. وبالرغم من إهمال الأتراك للقلعة إلا أنه يبقى لها مظهر عجيب وذلك لارتفاع جدرانها حيث تصل لحوالي 80 قدماً ويبلغ سمكها 20 قدماً وأروقته هائلة وحجراتها صغيرة باستثناء قاعة العرش فهي كبيرة وكانت تجرى فيها الاستقبالات³⁷.

32 - عبد القادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ص 104.

33 - ليون، ص 75.

34 - الأبيض، ص 67.

35 - جامي، ص 112.

36 - مختصر تاريخ فزان، ص 106.

37 - الأبيض، ص 68.

ويوجد للقلعة منفذ خارجي وهو المنفذ الوحيد لها، إلا أن النقيب ليون أكد بأن للقلعة ممرٌ ملتوّ وضيقٌ كما أنه مظلم ورطب في الوقت نفسه مما يعني بأنه ليس المنفذ الموجود الآن.³⁸

وقد بنى العثمانيون إلى جانبها ثكنة عسكرية تسمى القشلة وهي عبارة عن مبنى كبير مربع الشكل يخزن به السلاح، وحجرات للضباط في الجهة الشرقية وفي الجهات الأخرى كانت توجد قاعات طويلة لسكن الجنود. وقد شيد هذا المبنى ليستوعب ألفي رجل لكن لا يعيش فيه عادة سوى أربعمئة رجل،³⁹ ولكن عندما زارها رولفس كان العدد قد وصل إلى خمسمئة جندي من المشاة وأربعة مدافع ميدان وبعض من الخيالة.⁴⁰

جامع مرزق

بني في منتصف القرن التاسع عشر خلال فترة حكم حسن باشا وهو متصرف فرّان بالقرب من القلعة، وسمّي بجامع حسن باشا نسبة إلى المتصرف. ويعتبر هذا الجامع الكبير الجامع الرئيسي بالمدينة، ومخططه مربع الشكل تقريبا وقائم على 25 عموداً بعرض يزيد على المتر قليلا لكل منها، وما زال بحالة جيدة خصوصا من الداخل. ويوجد في فناء المسجد أربعة قبور متجاورة إحداها حمل شاهد اسم صاحب القبر وتاريخ 1273 للهجرة والذي ربما يكون للشخص الذي قام بإجراء الإصلاحات للمسجد.⁴¹

خطط المدينة

توجد ثلاثة مخططات وضعها رحالة أوروبيون زاروا مدينة مرزق ومخطط عثماني واحد كان في عام 1852 ميلادية بعد المخططات الثلاثة.

وأقدم هذه المخططات وضعه الرحالة الألماني هاينريش بارث عام 1850 ميلادية. وقد استعان به الرحالة الألماني رولفس عندما وصف مدينة مرزق عام 1865 ميلادية. ومن أبرز معالم هذا المخطط شارع الدندال وهو الشارع الرئيسي الذي تحفّ به منطقة السوق بحوانيتها ومتاجرها وكذلك القلعة والجامع.

38 - د. منصور محمد البابور، مرزق التحضر والقاعدة الاقتصادية، ص 32.

39 - الأبيض، ص 68.

40 - غانم، ص 283.

41 - البابور، ص 33.

وتظهر في هذا المخطط أسوار وأبراج المدينة، ويتضح من هذا المخطط وجود سورين الأول قديم والثاني حديث وبه ثلاثة أبواب باب غربي وشرقي وباب شمالي يؤدي إلى سبخة مرزق .

أما المخطط الثاني فقد وضعه الرحالة مورتيس فون بويرمان سنة 1862 ميلادية. ويعتبر هذا المخطط من أكثر المخططات دقة وتفصيلاً حيث شمل مدينة مرزق وأبوابها بخاصة الباب الشرقي وهو الذي يعرف بالباب الكبير. وشمل كذلك المنطقة المهجورة المحاطة بالسور القديم. وجاء مخطط ناختيجال عام 1869 ميلادية مشابهاً لمخطط بويرمان وهذا يعني أن مدينة مرزق قد حافظت على شكلها العام خلال العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر.

أما المخطط العثماني فهو مشابه لمخطط ناختيجال وقد وضع سنة 1882 ميلادية⁴². وهذه المخططات الأربعة مبيّنة في الملحق وقد استعنت بها من كتاب مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية.

ثالثاً : مدينة مرزق وتجارة العبور الصحراوية

خلال القرن التاسع عشر وعندما استلم يوسف باشا الحكم في طرابلس الغرب ازدادت أهمية مرزق الاقتصادية بالنسبة لتجارة العبور الصحراوية ونشطت العلاقات الاقتصادية بين إيالة طرابلس عبر الواحات الليبية الداخلية، بين هذه الواحات واحة مرزق، وبين أسواق السودان الأوسط والغربي من جهة وبين أسواق حوض البحر المتوسط والأسواق الأوروبية من جهة أخرى.

وأصبحت مدينة مرزق مركزاً تجارياً هاماً في طريق طرابلس - برنو الذي بات يكتسي أهمية عندما تحول مركز الثقل السياسي من السودان الغربي إثر سقوط مملكة سنغاي الإسلامية في أواخر القرن السادس عشر على يد أحمد منصور السعدي سلطان المغرب الأقصى. وقد أصبحت مملكة برنو مهيمنة على المناطق الصحراوية الواقعة على حدود فزان الجنوبية وأدى ذلك إلى أن تكون الأسواق التجارية الواقعة ما بين مرزق وبرنو أنشط المراكز التجارية في بلاد السودان الأوسط وأكثرها ازدهاراً.⁴³ وفي النصف الأخير من القرن التاسع

42 - الأبيض، ص 73-74.

43 - المرجع السابق - ص 207 و239.

عشر بدأ نشاط مدينة مرزق الاقتصادي في تجارة العبور الصحراوية يفقد أهميته تدريجياً وذلك عندما غير الأوروبيون تجارتهم من خط سيرها القديم إلى السواحل الإفريقية المطلة على المحيط الأطلسي، كذلك بسبب الشلل التام الذي أصاب تجارة الرقيق نتيجة للحظر الدولي الصارم له، وكذلك بسبب نشاط أولاد سليمان جنوب فزان ضد السلطة المركزية في طرابلس وذلك بقيامهم بغارات سطو ونهب لقوافل التجارة.⁴⁴ بالإضافة إلى ذلك فقد شهدت مملكة برنو اضطرابات سياسية وتدخلات أجنبية مما أدى إلى وقف معاملاتها التجارية شمالاً وأثر سلباً على نشاط مدينة مرزق في تجارة العبور الصحراوية.⁴⁵

الإنتاج المحلي لمدينة مرزق

ازدهرت الزراعة خلال القرن التاسع عشر في مرزق حيث شجع سلاطينها استصلاح الأراضي وزراعتها ومنحوا للمزارع الذي يزرع أرضاً مملوكة للدولة ثلثها والثلثين الآخرين يرجع لخزينة الدولة. وقد أصبحت ملكية الأراضي الزراعية ثروة ومصدر دخل للدولة والمواطنين وكانت عمليات بيع وشراء الأراضي تتم في كثير من الأحيان بالذهب.

وبالرغم من ندرة سقوط الأمطار في منطقة فزان إلا أنه يوجد بها مخزون من المياه الجوفية الوفيرة وغالباً ما تكون الآبار سطحية وغير عميقة وهذا ساعد على قيام الزراعة المروية.

وفي الرسالة التي بعث بها الرحالة إدوارد فوجل من مرزق بتاريخ 1853/10/8 ميلادية ذكر بأنه "تحيط بمرزق بساتين صغيرة تنتج أنواعاً قليلة من الحبوب والخضار" ففي الشتاء ينتج الشعير والقمح وفي الصيف القصب والقافولي التي أرسلت بعضاً منها لأنها تشكل في عموم الصحراء الغذاء الرئيسي للسكان. كما أن المعلومات حولها متداخلة والبعض يعتبر القافولي نوعاً من الفاصوليا والبعض الآخر يعتبره نوعاً من الذرة.

وذكر فوجل بعض نباتات وأشجار مرزق مثل نبات السن الذي كان ينمو في جنوب منطقة مرزق وكذلك النخيل الذي يعتبر من أهم أشجار فزان وخصوصاً في مرزق حيث تعتمد عليه في الغذاء وتستهلك أخشابها في أسقف وأبواب المنازل. ووصف فوجل أنواع التمور الموجودة في مرزق وضواحيها وعددها بثمان وثلاثين نوعاً⁴⁶.

44 - محمد إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا 1835 - 1882، ص 252.

45 - الأبيض، ص 275.

46 - المرجع السابق، ص 159 و163 و166.

وأشار رولفس بأنه يتوفر في فزان ثلاثمائة نوع من التمر، وفي مرزق وحدها ثلاثون نوعاً من أفضلها التاليس والتواتي.

أما عن زراعة التبغ فهي محتكرة من قبل الإدارة العثمانية عن طريق شركة (الريجي) وهي الشركة الوحيدة التي كانت تدير نفس الاحتكارات في جميع أنحاء الإمبراطورية التركية ورئاستها كانت في إسطنبول. وهناك نوعان من التبغ، النوع الأول كان يزرع في واحات طرابلس في فبراير ويحصد في أغسطس وأوراقه خفيفة وليست قوية، أما النوع الثاني وهو الفزان فيعتبر أكثر جودة حيث أن أوراقه قوية وسميكة، ويزرع في يناير ويجنى في يوليو وكان الهكتار الفزاني ينتج من 5.3 إلى 4 أطنان من الأوراق الجافة⁴⁷.

التجارة من الغرب إلى الشرق وبالعكس

في النصف الأخير من القرن الثامن عشر كان الحجاج يجتمعون في فزان ويرحلون عن طريق الواحات إلى القاهرة وقد كان هؤلاء يأتون من وراء الصحراء الكبرى وكان معظمهم من السودانيين القادمين من جنوب الأطلس.

وذكر الرحالة الإنجليزي لوكاس في عام 1788 بأن قافلة الحجاج كانت من بورنو وكاتسينا وجونجان في شمال غانا ومن الممالك السودانية الأخرى. وذكر لوكاس بأن عدد أفراد هذه القافلة لا يتجاوز 300 شخص وأن هذه القافلة تأتي إلى مرزق وتتحرك منها مرة كل سنتين أو ثلاثة.

وذكر الرحالة هورنمان الذي رافق إحدى هذه القوافل عند عودتها من القاهرة إلى مرزق عام 1798م وتسمى هذه القافلة (قافلة توات) بأن معظم أفرادها كانوا من مدينة توات الواقعة في الصحراء وكان قائدها تواتي. وفي طريقهم إلى مكة كانوا يحملون معهم سلع العبور ويبيعون في مرزق بعض هذه السلع لدفع أجرة إقامتهم ويحتفظون عند عودتهم بتجارتهم ليربحوا أكثر في بلدانهم.

أما أهم السلع التي كانت تأتي من الغرب إلى الشرق فكانت ثلاث سلع رئيسية هي الملابس الصوفية وريش النعام والجلود المدبوغة. وأهم السلع التي تأتي من الشرق ويتم حملها إلى الغرب كانت سلعةً مصرية وأخرى من شبه الجزيرة العربية خصوصاً القهوة والعطور وكذلك الملابس الحريرية والقطنية المجلوبة من شرق البحر المتوسط ومصر.⁴⁸

47 - الميجور أنتوني جوزيف كاكيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني، ص 173.

48 - الأبيض، ص 271-272.

التجارة من الشمال إلى الجنوب

كان أغلب التجار المصدرين من طرابلس إلى الجنوب من اليهود المقيمين في طرابلس ومن جنسيات أوروبية مختلفة، وكانت البضائع تشمل المنسوجات القطنية من مانشستر والسكر من النمسا والشاي الصيني المجلوب من مالطا والعطور من بلغاريا يحملونها عبر الآستانة وشرق أوروبا والخرز والجواهر وبعض الأدوات المعدنية والأسلحة والذخيرة. وتوجد قائمة بحجم التجارة المرسله من طرابلس عن طريق القوافل التجارية أعدها القنصل العام البريطاني سنة 1897م وهي تمثل المنسوجات القطنية البريطانية والمنسوجات النمساوية والحديد من فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وذكر بأن نسبة تقدّر بـ 84% من هذه البضائع تتجه من طرابلس إلى كانو.

وهناك أرقام وإحصائيات تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر تبين معظم واردات طرابلس من وراء البحر متمثلة في المنسوجات القطنية البيضاء والرمادية والمطبوعات.

وحدّد غروته البضائع الأوروبية في القرن التاسع عشر وهي الشاي والقهوة والسكر والأقمشة والأدوية والأسلحة والبارود واللؤلؤ والمصنوعات الزجاجية والحديدية من سكاكين وإبر وغيرها يأتي ثلثها من ألمانيا. وذكر أنّ طرابلس تمثل مستودعاً رئيسياً لهذه البضائع، ويعتبر أنّ النحاس وبعض المعادن والمنتجات الجاهزة تعدّ من أشهر سلع العبور المتجهة جنوباً. وكان النحاس يستورد من اسطنبول والبندقية ولفيرنوا في شكل سبائك، وكان يدخل على طرابلس أكثر من ألف قنطار من النحاس يأتي من اسطنبول وما بين 200 و300 قنطار من إيطاليا. وفي طرابلس كانت تتم عملية صهر النحاس الخام القديم في شكل سبائك وترسل الأواني والخردوات مع النحاس إلى مرزق ومناطق أخرى مثل غدامس. وكان معظم النحاس يمرّ عبر مرزق إلى أسواق تيبستي وبورنو وبلاد الهوسا حيث تصنع منه الأقراط والأساور خصوصاً في بورنو. وكان سلطان برنو يضرب عملته من النحاس. ولقد أصبح للنحاس قيمة ثابتة وباتت تقاس على أساسه درجة الثراء ومقايضة السلع. أما المعادن الأخرى التي كان يتاجر فيها في مرزق فأبرزها معدن الفضة وأغلبها يتم جلبه من تالرماريا تيريزيا وهي عملة نمساوية منتشرة في البحر المتوسط استخدمها سكان الصحراء وكانوا يصهرونها لصنع الأقراط والسلاسل ومجوهرات الزينة.

أما معظم الملابس الصوفية التي تأتي إلى مرزق فكانت من صنع إنجلترا ونابولي وكانت تأتي عن طريق طرابلس من ليفيربول أو عن طريق الإسكندرية. أمّا الملابس القطنية والحريرية

فكانت تصنع في إزمير والإسكندرية وكانت الملابس البيضاء أحياناً تصبغ باللون الأحمر أو الأزرق أو ألوان أخرى تمشياً مع أذواق أهل مرزق وفزان. وتبين إحدى الإحصائيات بأن طرابلس استوردت سنة 1767م. من إزمير عشرين ألف قطعة من الملابس القطنية البيضاء، وأن حوالي سبعة آلاف قطعة منها أرسلت إلى مرزق وغدامس. أما الخرز فكان يعتبر سلعة رائجة ومرغوب فيها فيما وراء الصحراء حيث كان يحمل جنوباً عن طريق مرزق وغدامس. وكانت طرابلس تستورد الملايين منه سنوياً ومعظمه كان يأتي من جنوا وفي أحياناً أخرى يأتي عبر الطرق البرية من تونس والإسكندرية. وأما الأسلحة النارية من بنادق ومسدسات وذخيرة فكان أغلبها يأتي عن طريق غرب ليبيا، والسلع الأخرى مثل المسامير والمرايا والإبر والمقصات والسكاكين والسلع الكمالية مثل الدخان فكانت تستورد من تركيا عن طريق ميناء إزمير. وكانت التوابل تجلب إلى طرابلس عبر ليفيربول وكانت طرابلس تستورد القهوة والشاي ويتم استهلاكهما محلياً عدا كميات قليلة منها كانت تصدر إلى مرزق⁴⁹.

التجارة من الجنوب إلى الشمال

كان العرب المسلمون هم الذين يقومون بتنظيم القوافل التجارية التي تنطلق إلى الصحراء وبلاد السودان الأوسط والغربي لجلب أهمّ منتوجات هذه المناطق إلى سواحل البحر المتوسط⁵⁰. وكانت أهمّ صادرات الجنوب كما حدّدها كورو هي جلد الماعز والمصنوعات الجلدية وريش النعام والتبر. وأما أهم هذه السلع وأكثرها ربحاً فهو العاج، وتعتبر نيجيريا من أهمّ مراكز تصديره إلى جانب ريش النعام. وكانت كل من مرزق وغات أهمّ معبرين يصدر من خلالهما منتجات نيجيريا وربورنو إلى طرابلس ومنها إلى أوروبا⁵¹، وكانت تفرض ضريبة على سلع العبور تقدر بنحو 3٪ من قيمتها في مرزق وتضاف إليها عند وصولها إلى طرابلس ضريبة جديدة نسبتها 12٪ ماعدا ضريبة الرقيق التي كانت تبلغ حوالي 10٪⁵².

وحدّد جيمس ريتشاردسون البضائع القادمة من بلاد السودان الأوسط والغربي وحصرها في الرقيق والعاج ونبات السنا، وقدّر قيمتها الإجمالية بحوالي ستين ألف دولار خلال الفترة ما بين عامي 1845م و1846م قبل أن تصل إلى الأسواق الأوروبية التي تتضاعف فيها قيمتها. وبعد هذه السلع يأتي ريش النعام والجلود وبعدها من حيث الأهمية

49 - المرجع السابق، ص 242 - 248.

50 - المرجع السابق، ص 251.

51 - فرانثيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ص 107.

52 - الأبيض، ص 252.

سلع سودانية متنوعة كالأدوات المنزلية والحقائب وقرب الماء والأسلحة البيضاء كالسيوف والخناجر، علماً بأن معظم الأسلحة المعدنية كانت تصنع في منطقة الإير، وكان لها تجارة رابحة في مرزق. وتعتبر بلاد السودان الأوسط والغربي ومنطقة الإير من أهم البلاد المصدرة لبعض مواد السلع التموينية لسكان المناطق الصحراوية، وتعدّ مرزق من بين هذه المناطق. وبعض هذه السلع هي السمن والقصب والذرة الغانية المعروفة باسم "القافولي" والجبن واللحوم الجافة والحيوانات الحية مثل الأغنام⁵³.

ونذكر فيما يلي بالتفصيل أهم صادرات الجنوب للشمال حسب أهميتها :

1- الرقيق

يعتبر الرقيق من أهم السلع بالنسبة لتجارة القوافل وكان يتم الحصول عليه عن طريق الغارات. وتعتبر مدينة مرزق وكذلك غات وغدامس وجالو من أهم أسواق الرقيق، ومصادرها كانت من برن ووادي وبلاد الهاوسا في شمال نيجيريا. وأهم أماكن تجمع الرقيق كان في طرابلس قبل إصدار السلطان العثماني في عام 1848م. مرسوماً يأمر فيه والي أيلة طرابلس الغرب بتحريم المتاجرة بالرقيق. وكانت قوافل الرقيق تنطلق على مرحلتين، الأولى من أكتوبر إلى مارس كي تصل قبل فصل الأمطار التي تبدأ في بلاد السودان في شهر يونيو/حزيران وتكون العودة إلى طرابلس بعد تجهيز سلعتهم من الرقيق ما بين شهري يوليو/تموز وسبتمبر/أيلول. وكان بعضهم يغادر بلاد السودان بعد انتهاء فصل الأمطار ليصل إلى طرابلس خلال فصل الربيع.

وكانت قوافل الرقيق في بعض الأحيان تباع بعض رقيقها لقافلة أخرى في الطريق وأحياناً تتقابل مع تجار الرقيق الوافدين من مدن تقع على سواحل البحر المتوسط كمرزق أو غدامس مثلاً، حيث تتم عملية البيع والشراء.

وبعد حظر تجارة الرقيق كان النخاسون يسرون في مجموعات صغيرة ليتمكنوا من الإفلات من السلطات والوصول إلى الأسواق. وكانت تجارة الرقيق تتم في الأغلب نقداً لا عن طريق المقايضة، وكانت أسعار الرقيق في مرزق وغات وغدامس أقل من طرابلس بنحو 50٪ أثناء الحظر، وترتفع قيمة النساء الصغيرات السنّ اللواتي يستخدمن خدماً في المنازل وعشيقات لأسيادهنّ وبعض المخصيين من الرجال الذين يستخدمون في الإشراف على الحريم. ومن أشهر أماكن تصدير هذين النوعين من الرقيق حوض تشاد شمال الكمرن

53 - جيمس ريتشاردسون، ترحال في الصحراء، ص 385.

وغرب نيجيريا، ويأتي معظم الرقيق المطلوب إلى مرزق من حوض تشاد وحيث تعتبر برنو المصدر الرئيسي له. وبمجرد وصول الرقيق إلى طرابلس يصدر معظمهم خارج ليبيا وتباع الأقلية الباقية في الأسواق الليبية.

وكان نقل الرقيق إلى خارج ليبيا يتم عن طريق السفن الفرنسية وبعض السفن الأوروبية الأخرى. ومن أهم مراكز استقبال الرقيق في الخارج إزمير وكاتيه في جزيرة كريت وباتراي في اليونان، وهناك أسواق أخرى كانت أقل أهمية مثل أثينا في اليونان وجربة في تونس وبعض موانئ بحر إيجة. وتعتبر إسطنبول السوق الرئيسي لتجارة الرقيق في الدولة العثمانية ويصدر الرقيق كذلك من مرزق شرقاً إلى مصر عن طريق أوغله وسيوه⁵⁴.

2- ريش النعام

يعتبر ريش النعام من أهم السلع التي شملتها تجارة الصحراء في القرن التاسع عشر إذ كان الطلب عليه من قبيل الرفاهية والموضة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر حيث استعملت نساء أوروبا ريشه في القبعات وأغطية الرأس. ولم يقتصر استخدامه على النساء فقط بل استعمله الرجال أيضاً في القبعات حيث توجد صورة لنابليون يظهر فيها بالزي الإمبراطوري الرسمي يرتدي قبة يكسوها ريش النعام. وقد استعمل أيضاً في صناعة مراوح اليد ولتزيين الخيول كما أستخدم كأقلام للكتابة⁵⁵.

وقد قدر القنصل الفرنسي صادات طرابلس من ريش النعام القادم إليها من الجنوب سنة 1880م. بما قيمته ثلاثمائة ألف جنيه إسترليني. وفي سنة 1885م. لم تزد تلك القيمة عن مائة ألف جنيه إسترليني⁵⁶. أغلب هذه السلع كان مصدرها من برنو إلى الشمال عن طريق مدينة مرزق حيث يوجد تجار متخصصون في هذا النوع من التجارة. وكان يتم تصنيف ثمن ريش النعام في طرابلس حسب نوعه أكان ذكراً أم أنثى وحسب لونه، ثم يوضع في طرود للتصدير إلى الخارج⁵⁷.

3- نبات السنا

تستخدم أوراق هذا النبات بشكل كبير في أوروبا حيث تستخلص منه الأدوية للعلاج في عدة حالات. ويزرع هذا النبات بكثرة في منطقة تيبستي. وكان الطوارق والتبو يحصدون

54 - الأبيض، ص 255 - 258.

55 - د. مايون جونسون، مجلة البحوث التاريخية، ص 133-134.

56 - الأبيض، ص 263.

57 - د. أحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديثة، الوثائق العثمانية 1881 م - 1911 م، وثيقة رقم 5، ص 21.

أوراقه وكان وزن الحزمة الواحدة يصل إلى نصف قنطار. وكان نبات السنا في تيبستي يصدر عن طريق مرزق وفي منطقة الإير إلى غدامس وغات.

وكانت مدينة طرابلس تستقبل أغلب صادراته، وفي إحدى تقديرات القناصل تقدر الكمية الموردة من مرزق إلى طرابلس ما بين 500 إلى 2000 قنطار سنوياً ويقوم التجار الإيطاليون واليهود في طرابلس بتصديره إلى البندقية ونابولي وجنوه.

4- العاج

يعتبر العاج من أهم سلع العبور التي تمر عبر مرزق عن طريق برنو. وكانت معظم واردات طرابلس من العاج الذي يأتيها من وراء الصحراء تذهب معظمها إلى بريطانيا.

5- الذهب

من عهد ممالك غانا ومالي وسنغاي، يعتبر الذهب من أهم سلع التجارة الصحراوية. وفي القرن الثامن عشر تحولت أغلب تجارة الذهب إلى مصانع الأوروبية عن طريق ساحل غرب أفريقيا، إلا أن كميات كبيرة منه تصدر شمالاً عبر الصحراء، وكان الذهب الذي يصل إلى ليبيا يأتي عن طريق منطقة الأشانتي في غانا ويتم تصديره عبر بلاد الهاوسا وبرنو⁵⁸.

الخاتمة

ومن خلال هذا البحث يتبين أن مرزق كانت تعتمد اعتماداً كبيراً في نشاطها الاقتصادي على تجارة القوافل، حيث قيل فيها لولا التجارة لما كانت مرزق، مع ملاحظة إن اسم مرزق نفسه مشتق من كلمة "مرزوق" المرتبطة بالاسترزاق. وكان لمدينة مرزق وغيرها من مدن القوافل الأخرى الموجودة في الصحراء الكبرى دور في الاتصال بين حضارة البحر المتوسط والحضارة الإسلامية من جهة وشعوب السودان الأوسط والغربي من جهة أخرى. وبالرغم قسوة مناخ الصحراء فإنه لم يشكل عائقاً بين هذه الحضارات.

وأخيراً، فإنه من الواجب حماية هذه المدن ومن بينها مرزق من الهدم والتخريب، والمحافظة عليها وذلك بإجراء ترميم كامل لها. كما ينبغي أن تربط بالمخططات الحديثة لإحيائها على أن لا يمس ذلك طابعها الأصلي، وأن تستثمر جميع الإمكانيات المتاحة للاهتمام بالسياحة فيها خصوصاً بعد أن أصبح الوصول إلى هذه المدن ميسراً وسهلاً وذلك لتقدم البنية التحتية حيث تعددت المطارات وتوفرت شبكات الطرق الحديثة التي تربط جميع هذه المدن في ليبيا.

58 - الأبيض، ص 263-268.

المراجع

- 1- أيوب، محمد سليمان، *جرمة من تاريخ الحضارة الليبية*، دار المصراطي للطباعة والنشر، 1969.
- 2- أيوب، محمد سليمان، *مختصر تاريخ فزان، المطبعة الليبية*، طرابلس الغرب، 1967.
- 3- الزاوي، الطاهر، *تاريخ الفاتح العربي في ليبيا*، دار المعارف بمصر، 1954.
- 4- القاضي، أبو بكر عثمان، *فزان ومراكزها الحضارية عبر العصور (مرزق)*، مركز دراسات وأبحاث الصحراء، 1989.
- 5- رايت، جون، *تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور*، تعريب عبد الحفيظ المييار وأحمد اليازوري، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1972.
- 6- مؤنس، حسين مؤنس، *"فزان ودورها في انتشار الإسلام في أفريقيا"*، مجلة كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، بنغازي، العدد الثالث، 1969.
- 7- مناع: محمد عبد الرزاق، *الأنساب العربية في ليبيا*، الإسكندرية، دار المختار، 1991.
- 8- ليون، جون فرانسيس، *من طرابلس إلى فزان 1818-1822*، ترجمة مصطفى جودت، طرابلس، تونس، الدار العربية للكتاب، 1976.
- 9- الأبييض، رجب نصير، *مدينة مرزق وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر، دراسة في التاريخ السياسي*، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية، رقم 25 الطبعة الأولى 1998.
- 10- غانم، عماد الدين (محرر ومترجم) *رحلة عبر أفريقيا، مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبورنو وخليج غينيا*، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1996.
- 11- جامي، عبد القادر، *من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى*، ترجمة محمد الأسطى، تقديم على المصراطي، طرابلس دار المصراطي للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة 1 - 1974.
- 12- البابور - منصور محمد، *مرزق التحضر والقاعدة الاقتصادية*، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، ط. 2، 1995.
- 13- إسماعيل عمر، *التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا 1835-1882م*، القاهرة، جامعة عين شمس، 1972.
- 14- كاكيا، أنتوني جوزيف، *ليبيا خلال العهد العثماني الثاني 1835 م - 1911 م*، الطبعة (1)، طرابلس، دار الفرجاني، 1975.
- 15- كورو، فرانثيسكو، *ليبيا أثناء العهد العثماني*، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، 1971.
- 16- ريتشارد سون، جيمس، *ترحال في الصحراء*، ترجمة الهادي أبو لقمة، بنغازي، جامعة قاريونس، 1993.
- 17- د. جونسون، ماريون، *"تجارة ريش النعام في النصف الأول من القرن التاسع عشر"*، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير، 1981، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
- 18- الدجاني، أحمد صدقي، *وثائق تاريخ ليبيا الحديث*، الوثائق العثمانية 1881-1911، ترجمة عبد السلام أدهم، بيروت، 1974.